﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٩٥ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٩٦﴾ [النّساء: 95 - 96]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

المناسبة بين المعاتبة على قتل الخطأ، وتبيان فضل المجاهدين على القاعدين

في مناسبة الآية لما قبلها ثلاثةُ أَوْجُهٍ[1]: أحدُها: أنَّ الله تعالى لَمَّا رغَّبَ في الجهادِ وأمرَ به، أَتْبَعَهُ بذِكْرِ أحكامِه؛ فحَذَّرَ المسلمين مِنْ قَتْلِ المسلمين، وبَيَّنَ الحالَ في قَتْلِهم خَطأً وَعَمدًا وتأويلًا، ثُمَّ أعقبَ ذلكَ كُلَّهُ ببيانِ فضلِ المجاهِدِ على غيره، وبيّن المفاضلة بين المجاهدين بالأموال والأنفس، وبين القاعدين بلا عذر شرعيّ عن القتال. وثانيها: أنَّ الله تعالى لَمَّا عاتبَ المؤمنين على ما بَدَرَ منهم مِنْ قَتْلِ مَنْ نَطَقَ بالشَّهادَةِ، وألقى إلى المسلمين السّلم، دون تبيّن حالته، أو السّؤال عن حكم الشّرع في وضعيّته، توقّيًا من أن يقع في قلوب المؤمنين، أنَّ التَّحرُّزَ عنِ الجهادِ بتركِهِ أَوْلى؛ لئلَّا يَقعوا في مثل هذا المحظور بسببه، فأعقبَ اللّهُ تعالى ذلك بِبَيانِ فَضْلِ المجاهدِ على غيرِهِ؛ لإزاحَةِ هذه الشُّبْهَةِ.وثالثُها: أنَّ الله سبحانه لَمَّا عاتَبَهم على ما بَدَرَ منهم مِنْ قَتْلِ مَنْ نَطَقَ بالشَّهادةِ؛ أعقبَهُ بِذِكْرِ فضيلةِ الجهاد؛ تنبيهًا على أنَّ مَنْ حاز هذه الفضيلةَ الكبيرةَ؛ فإنَّ عليهِ الاحترازَ مِنْ تلكَ الهَفوةِ؛ لئلَّا يُخِلَّ بالفضيلةِ الّتي حازها، وفي ذلك تصحيحٌ للمُمَارسات، وعلاجٌ للنّفسيّات، وتحسّبٌ للعثرات القابلات.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/192، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/368.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّا يَسْتَوِي﴾: السِّينُ والواوُ والياءُ تَدُلُّ تصاريفُها، على استقامةٍ واعتدالٍ بين شَيْئَيْنِ[1].

ومنهُ قولُهم: مكانٌ سَواءٌ، أيْ: وَسَطٌ، والاِسْتِواءُ: التَّساوي، كقولِهم: استوى زيدٌ وعمروٌ؛ أيْ: تَساوَيا[2]، وقولُه تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ أيْ: لا يَتَساوَيانِ، قال ابنُ جَريرٍ: "لا يَعْتَدِلُ المُتَخَلِّفونَ عَنِ الجهاد في سبيل اللّه"[3]، "وقسّم الشّيء بينهما (بالسّوية). ورجل (سويّ) الخلق، أي (مُسْتَوٍ) و(اسْتوى) من اعوجاج، واستوى على ظهر دابّته أي استقر، و(ساوى) بينهما أي سوّى، و(استوى) إلى السّماء قصد، واستوى أي استولى وظهر، قال الشّاعر:

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ *** مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ[4]

ولفظ ﴿لَّا يَسْتَوِي﴾ يؤدّي معنى في سياقه، مفاده أنّ بين المجاهدين فى سبيل اللّه بأموالهم وأنفسهم، وبين الّذين لم يجاهدوا بذلك، من ذوي الأعذار، من تفاوت في الفضل والمنزلة عند اللّه، لا يخفى على متدبّر القرآن، والفاقه لمعانيه[5].

2) ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾: من القعود يقابل به القيام، ومنه ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾ [النّساء 103]، ويعبّر عن المتكاسل بالقاعد، ومنه ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ﴾، وعن التّرصّد للشّيء بالقعود، نحو ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ [الأعراف: 16][6]، والقافُ والعَينُ والدّالُ تدورُ اشتقاقاتُها على رُسُوخٍ يَنْصِبُ ما يَعْلُوهُ، كقواعدِ البيتِ تَنْصِبُها وتُثَبِّتُها، ومنهُ: إطلاقُ القعودِ على الثَّباتِ، كتَسميتهم التّثاقُلَ عَنِ القتالِ والتَّخلُّفَ عنهُ قعودًا؛ لِمَا فيه من ثَباتِ التَّخلُّفِ[7].والقُعُودُ عَنِ الأمرِ: تَرْكُهُ، والقعودُ لَهُ: الاهتمامُ به[8]، ومِنَ الأوَّلِ قولُه تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أيْ: المتخلِّفُون عَنِ القِتالِ، التَّاركونَ لهُ.

3) ﴿ٱلضَّرَرِ﴾: الضّرُّ: خلاف النّفع، وقد ضرّه وضارّه بمعنى، والاسم الضّرر[9]، الضَّادُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سوي).
(2) الرّاغب، المفردات: (سوا).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/85.
(4) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (سوا).
(5) الخطيب، التفسير القرآنّي للقرآن: 3/873.
(6) المنّاوي، التّوقيف، ص: 274.
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قعد).
(8) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (قعد).
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (ضرر).

والرَّاءُ تَدُلُّ تصريفاتُها على معانٍ، منها: ضِدُّ النَّفْعِ[1]، وحقيقَةُ الضُّرِّ: سُوءُ الحالِ؛ إمَّا في نَفْسِه لِقلَّةِ علمٍ وفضلٍ ونَحْوِهما، وإمَّا في بَدَنِه لعَدمِ جارحةٍ، وإمَّا في حالةٍ ظاهرةٍ كقلَّةِ مالٍ وجاهٍ[2]، والضَّرَرُ في قوله تعالى: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾: الزَّمَانَةُ[3]، وأولو الضَّرَرِ: مَنْ بِهِم علَّةٌ تَضرُّهم وتَقْطَعهُم عَنِ الجهادِ[4].

4) ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾: الجيمُ والهاءُ والدَّالُ، تَدُلُّ تصريفاتُهُ على المَشقَّةِ[5]، ويأتي بمعنى الطَّاقةِ والوُسْعِ[6]، والمُجاهَدَةُ تُطلَقُ في الشَّرْعِ على اسْتِفْراغِ الوُسْعِ في مُدافعة العَدُوِّ، وهو ثلاثةُ أضربٍ: مجاهدةُ العدوِّ الظَّاهرِ، ومجاهدةُ الشَّيطانِ، ومجاهدةُ النَّفْسِ[7]، وغالبُ مُراداتِ الشَّرعِ في الجهادِ: أنَّهُ محاربةُ الكفَّارِ، وسُمِّيَ بذلكَ؛ لِما فِيهِ مِن اسْتِفْرَاغِما في الوُسعِ والطَّاقةِ من قولٍ أو فعلٍ[8]، ولِما في ذلك مِنَ المشقَّةِ على النّفوس.والمجاهدون في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الّذين يُحاربونَ الكفَّارَ.

5) ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾: من الحسن وهو ضِدِّ القُبْحِ[9]، والمَحاسِنُ مِنَ الأعمالِ: ضِدُّ المَسَاوِئِ، والحَسَنُ: كُلُّ مُبْهِجٍ مرغُوبٍ فيه، وَالحَسَنَةُ: يُعَبَّرُ بها عَن كُلّ ما يَسُرُّ من نعمةٍ تنالُ العبدَ في نفسِه أَو بدنِه ونحوِ ذلكَ، والسَّيِّئَةُ ضدُّها[10]، وقالواْ: امرأة (حسناء) ولم يقولواْ: رجل أحسن. وهو اسم أنّث من غير تذكير، كما قالواْ: غلامٌ أمرد ولم يقولوا: جارية مرداء، فذكّرواْ من غير تأنيث[11]، ومِنْ هذا البابِ: الحُسْنى؛ وهي الجنَّةُ، وضدُّها: السُّوأَى؛ وهي النَّارُ[12]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾ [يونس: 26][13].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغَة: (ضرّ).
(2) الرَّاغب، المفردات: (ضرّ).
(3) الخليل، العين: (ضرّ).
(4) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 7/46، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ض).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جهد).
(6) الرَّاغب، المفردات: (جهد).
(7) الرَّاغب، المفردات: (جهد).
(8) ابن الأثير، النِّهاية: (جهد).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسن).
(10) الرَّاغب، المفردات: (حسن).
(11) الرازي، مختار الصّحاح: (حسن).
(12) الخليل، العين: (حسن).
(13) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حسن).

6) ﴿أَجۡرًا﴾: الأجر: الثّواب. تقول: أجره اللّه يأْجُرُه ويأْجَرَه أجرا[1]، الهَمْزَةُ والجيمُ والرَّاءُ تَدُلُّ اشتقاقاتُها على معنَيَيْن: الكِرَاءِ على العَمل، وجَبْرِ العظمِ الكسيرِ، وبينَ المَعْنَيَيْنِ رابطٌ ينظِمُهُما؛ فإنَّ الأجرةَ بمثابَةِ الشَّيءِ الّذي يُجبَرُ بهِ حالُ العاملِ مقابلَ ما أصابَهُ من كَدٍّ وجُهْدٍ في عملِه[2].والأجْرُ: ما يعُودُ مِن ثواب العملِ دنيويًّا كان أو أخرويًّا، ولا يُستعمَلُ إلَّا في النَّفْعِ دُون الضّرِّ[3]، والأجرُ في قول اللّه سُبحانه: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّـهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾، هو ثوابُ العمَلِ الأخرَويُّ.

7) ﴿عَظِيمًا﴾: عظم الشّيءُ عظما: كبر، فهو عظيم[4]، العينُ والظَّاءُ والميمُ تَدُلُّ اشتقاقاتُها على معنى الكِبَرِ والقُوَّة[5]، ويَرِدُ بمعنى الجَسامةِ والصَّلابة[6]، وهذا المعنى لازمٌ للأوَّلِ، ومنه سُمِّيَ العَظْمُ عَظْمًا؛ لصَلابتِهِ وقُوَّتِه. ثُمَّ يُستعمَلُ هذا الأصلُ في الضَّخامة المعنويَّة؛ فالعظيمُ مِنَ الأمور: ما لَهُ شأنٌ كبيرٌ.والأجرُ العظيمُ في قول اللّه تعالى: ﴿أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ هو الثَّوابُ الجزيلُ الكثيرُ، وليسَ له مِقدارٌ يَعْرِفُ العبادُ مبلغَهُ[7].

8) ﴿وَمَغۡفِرَةً﴾: الغَيْنُ والفاءُ والرَّاءُ تَدُلُّ أكثرُ تصاريفِها على معنى السَّتْرِ، ومنهُ: الغَفْرُ، وهو السَّتْرُ[8]، وقال الرَّاغبُ: "الغَفْرُ: إلْبَاسُ الشَّيءِ ما يَصُونُه عَنِ الدَّنسِ[9]"، وهو راجعٌ إلى معنى السَّتْرِ.والمَغْفِرَةُ شرعًا: سَتْرُ الذَّنب، والتَّجاوزُ عنهُ[10]، وقال الشّاعر نصيب:

مَنْ ذَا ابْنَ لَيْلَى جَزَاكَ اللّهُ مَغْفِرَةً *** يُغْنِي مَكَانَكَ أَوْ يُعْطِي كَمَا تَهَبُ[11]

9) ﴿وَرَحۡمَةً﴾: وهي الرّقة والتّعطّف، و(المرحمة) مثله، وقد (رحمه) بالكسر (رحمة) و(مرحمة) أيضا و(ترحّم) عليه. و(تراحم) القوم (رحم) بعضهم بعضا[12]، والرَّاءُ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (أجر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أجر).
(3) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (عظم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عظم).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عظم).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 8/542.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غفر).
(9) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(10) ابن عثيمين، القول المفيد: 1/85.
(11) الأنباريّ، الزّاهر: 2/39.
(12) الرّازي، مختار الصّحاح: (رحم).

والحاءُ والميمُ تَدُلُّ تصاريفُها على الرِّقَّةِ والعَطْفِ والرَّأفةِ[1]، ومنهُ: المَرْحَمَةُ؛ وهي الرَّحْمَةُ، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البلد: 17]؛ أي: أوصى بعضُهم بعضًا برَحْمَةِ الضَّعيفِ، والتَّعطُّفِ عليهِ[2].والرَّحْمَةُ في قوله تعالى: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ صِفَةٌ للهِ تعالى تَقْتَضي الإحسانَ والإنعامَ[3]، وليست هيَ الإحسانَ ذاتَهُ، ولا إرادَتَهُ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تؤكّد الآية الكريمة، أنّه لا يتساوَى مَنْ تَخَلَّفَ عَنِ الجهادِ – مِنْ غيرِ أصحابِ الأعذارِ؛ مِنْ نَحْوِ مَنْ ذَهَبَ بَصَرُهُ، أو منعه مانع قاهر، ومَنْ جاهدَ في سبيلِ اللهِ تعالى بالمالِ والنَّفْسِ؛ فقد فضَّلَ اللهُ سبحانه مَنْ جاهدَ على مَنْ لم يُجاهِدْ مِنْ أهلِ الأعذارِ، ورَفَعَ منزلتَهُ درجةً في الجنَّةِ عاليةً، وكُلٌّ ممَّنْ جاهدَ بالمالِ والنَّفْسِ، ومَنْ لم يُجاهِدْ مِن أصحابِ الأعذارِ: موعودٌ بالجنَّةِ، وقد فَضَّلَ اللهُ (ﷻ) مَنْ جاهدَ على مَنْ لَم يُجاهِدْ – وهو غيرُ معذورٍ – بثوابٍ جزيلٍ، وهذا الثَّواب الجزيلُ، هو منازلُ عاليةٌ مِنْ منازلِ الكرامةِ، ومغفرةُ ذُنُوبِهم، ورحمةٌ يَنْعمُونَ بها، ولم يَزَلِ اللهُ تعالى غفورًا لعبادِهِ المؤمنين رحيمًا بِهِم[4].

لا يستوي مجاهد ناهض في سبيل الله، وقاعد متثاقل عمّا أمره الله

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

خُرُوجُ الخَبَرِ عَنْ دَلَالَتِهِ الأَصْلِيَّةِ:

الجملةُ في قول اللهِ تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، يُرادُ بها

تتفاوتُ الدّرجات يوم الدّين، بِحَسَبِ تَفَاوُتِ أَعْمَالِ المؤمنين

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رحم).
(2) الخليل، العين: (رحم).
(3) ابن عثيمين، مذكرة على العقيدة الواسطيَّة، ص: 23.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 9/85 - 99، وأبو المظفَّر السَّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/467 - 468، والسّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 195، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 94.

الإذْكارُ بما بينَ طبقاتِ المُؤْمِنِين مِنَ التَّفاوتِ العظيمِ والبَونِ البعيدِ، بحَسَبِ تفاوتِ درجاتِ مَساعِيهم في الجهادِ؛ ليكونَ ذلك حاثًّا على الجهادِ في سبيلِ اللّه تعالى، ودافعًا إليهِ، ومَحرِّضًا عليه، ولِيأنَفَ القاعدُ ويترفَّعَ بنفسِه عَنِ انحطاطِ مَرتبتِه، فَتَسْمُوَ همَّتُهُ إلَى الجهادِ، وَتَرْغَبَ نفسُهُ فيه[1]، ودَلالةُ الخبَرِ على التَّذكيرِ بما بين المراتِبِ مِنَ التَّفاوتِ ضربٌ من ضروبِ المجازِ، وهو مجازٌ مُرْسَلٌ مُركَّبٌ.

نُكْتَةُ إبْهَامِ المَرْتَبَةِ بَيْنَ المُجَاهِدِ وَالقَاعِدِ:

الصَّمْتُ عَنِ الإفَادَةِ أَزْيَدُ لِلْإفَادَةِ

في قولِه سبحانه: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تصريحٌ بعدمَ تساوِيهما، دُونَ التَّنصيصِ على أفضليَّةِ المجاهدينَ، وفي هذا إبهامٌ على السَّامعِ، وهو أبلَغُ مِن تحديدِ المرتبَةِ بينَ المُجاهِدِ والقاعدِ؛ "فالمُتأمِّلُ يَمْشِي معَ فِكْرَتِه، ولا يزالُ يَتَخَيَّلُ الدَّرجاتِ بينَهما[2]"، "فإن قلت: معلوم أنّ القاعد بغير عذر والمجاهد، لا يستويان، فما فائدة نفي الاستواء؟ قلت: معناه الإذكار بما بينهما من التّفاوت العظيم والبون البعيد، ليأنف القاعد ويترفّع بنفسه عن انحطاط منزلته، فيهتزّ للجهاد ويرغب فيه، وفي ارتفاع طبقته، ومثل ذلك واضح في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ﴾ [الزّمر: 9]؟ أريد به التّحريك من حميّة الجاهل وأنفته ليهاب به إلى التّعلّم، ولينهض بنفسه عن صفة الجهل إلى شرف العلم"[3].

الْقُعُودُ عَنِ الجِهَادِ غَيْرُ مُخِلٍّ بِأَصْلِ الإيمَانِ

فَائِدَةُ تَقْيِيدِ القَاعِدِينَ بِقَوْلِه ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

تقييدُ القاعدين بكَوْنِهم ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لنُكْتَتَيْنِ[4]: إحداهما: الإعلامُ ابتداءً بأنَّ وصفَهم بالقُعودِ غيرُ مُخِلٍّ بأصلِ إيمانِهِمْ،

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/553 - 554، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/220.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/97.
(3) الزّمخشريّ، الكشاف عن حقائق غوامض التّنزيل: 1/554.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/220، والآلوسّي، روح المعاني: 3/117.

والأخرى: الإشعارُ بعِلَّةِ استحقاقِهم الحُسنى - وهي الجنَّةُ - الواردَةَ في قولِه سبحانه: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾، "قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: متعلّق بمحذوف لأنّه حال، وفي صاحبها وجهان، أحدهما: أنّه القاعدون، فالعامل في الحال في الحقيقة ﴿يَسۡتَوِي﴾، والثّاني: أنّه الضّمير المستكنُّ في ﴿ٱلۡقَٰعِدُونَ﴾، لأنّ (أل) بمعنى الّذي، أي: الّذين قعدوا في هذه الحال، ويجوز أن تكون ﴿مِنَ﴾ للبيان"[1]، فالإيمان شرط لحصول المقام مع أهل القرب.

بَلَاغَةُ مَوْقِعِ الِاسْتِثْنَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾:

للاستثناء ﴿غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ من قوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ﴾ موقعٌ بديعٌ، وله نِكَاتٌ ثلاثٌ[2]: أُولَاها: لئلَّا يَظُنَّ أصحابُ الأعذارِ أنَّهم مَقْصُودونَ بالتَّحريضِ، فيخرجوا لِلْجِهادِ، فيُكلِّفوا إخوانَهم المسلمين مؤونَةَ حَمْلِهم وحمايتِهم دون جَدْوى. ثانيها: لئلَّا يَظُنَّ أصحابُ الأعذار أيضًا أنَّهم مقصودُون بالتَّعريضِ، فيكون ذلك سببًا في انكسارِ نفوسِهم انكسَارًا زائدًا على انْكِسارِها بعجزِهم. ثالثها: أنَّ في استثنائهم إنصافًا لهم، وعُذْرًا لعجزهم عن الجهاد؛ بأنَّهم لو كانوا قادِرين عليه؛ لبادَرُوا إليهِ، لآنّ في نفوسهم توق إلى نصرة دين اللّه، وحماية بيضة الإسلام، ولكنّ الظّروف الصّحية والأعذار الشّرعيّة منعتهم من ذلك.

مُـراعـاةُ أَهْـلِ الأَعْـذَارِ وَتَجَنُّبُ مَا يَكْسِرُ قُلُوبَهُمْ

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِوَصْفِ الجِهَادِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ﴾:

جاء التَّعبيرُ عَن هذا الفريقِ مِن أهل الإيمان بوَصْفِ الجهاد، فقال سبحانه: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لإرادةِ المدحِ؛ إذ إنَّ الجهادَ في الشَّرْعِ

الـجِـهَـادُ مِـنْ أَفْضَلِ الأَعْمَالِ المُـقْـتَـضِـيَـةِ الـتَّـعْـظِـيـمَ وَالتَّبْجِيلَ

(1) السّمين، الدّرُّ المصون: 4/75.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/170.

مِنَ الأعمال العِظَام؛ لِمَا فِيهِ مِنَ المُخاطرةِ بالمُهَجِ الّتي هي أغلَى ما عِنْدَ المَرْءِ، فالمُجاهِدُ وَصْفٌ يقتضي التَّعظيمَ والتَّبجيلَ؛ لتَلَبُّسِهِ بهذا العمَلِ الجليلِ، ولم يُعبَّرْ عَن هذا الفريقِ بالخروجِ، مع كونهِ أنسبَ لِلْوَصْفِ المَذْكُورِ في المَعْطُوف عليهِ وهُو القُعُود - كالوراد في قوله سبحانه: ﴿۞وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة: 46] - ؛ للإشعارِ بأنَّ القعودَ كان عَن الجهادِ، ولم يُحْتَجْ إلى التَّصريحِ بمتعلَّق القعودِ؛ رعايةً لِلْقَاعِدِين في الجملة[1].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ القَاعِدِينَ على المُجَاهِدِينَ:

شَرَفُ المُجَاهِدِينَ لِشَرَفِ مَا تَلَبَّسُوا بِهِ مِنْ جَلِيلِ العَمَلِ

في تَقديم القاعدينَ على المُجاهدين ثلاثُ نِكاتٍ: أُولَاهَا: الإشعارُ ابتداءً بأنَّ التَّفاوُتَ بين المجاهدين والقاعدين ليس مِن جهةِ قصورِ القاعدين، بل لشرف المجاهِدين؛ وذلك أنَّ المتبادَرَ إلى الذِّهْنِ من عدم الاستواءِ بين الشَّيئَين المتفاوتَين سبَبُهُ: قصورُ القاصرِ[2]، وعليه فَتَفْضِيلُ المجاهدين لا يكونُ فِيهِ كبيرُ مدحٍ لهم حينئذٍ؛ لأنَّه يكُون مِن باب: (السَّيْفُ أحدُّ من العصَا)! فقُدِّمَ القاعدونَ؛ لِلتَّنبيه على أنَّ عدمَ الاستواءِ سبَبُهُ شرفُ المجاهدين، معَ فضيلةٍ كائنةٍ في القاعدين، ويؤيِّدُ هذا: وصفُ القَاعِدِين بـ ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.وثانيها: أنَّ في تقديم القاعدين في الذِّكْرِ زيادةً في مدحِ المجاهدين؛ إذْ يحْصُلُ بذلك التَّرقِّي في إيرادِ الرُّتَبِ والمنازلِ بذِكْرِ المجاهدين بعدُ. وثالثُها: قُدِّمَ القاعدُون على المجاهدين ولم يُؤخَّروا عَنْهُمْ؛ ليتَّصِلَ التَّصريحُ بتفضيلِ المجاهِدِينَ في قوله: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾[3].

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 3/118.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/220.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 3/118.

سِرُّ إِضَافَةِ السَّبِيلِ إِلَى الِاسْمِ الأَعْظَمِ ﴿ٱللَّهِ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

سُلُوكُ سَبِيلِ اللهِ تعالى مُوصِلٌ لِرَحْمَتِهِ

إضافةُ السَّبيلِ إلى الاسْمِ الأعظم ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يُراد بها تعظيمُ السَّبيلِ، والإشعارُ بأنَّ مَن سلكَهُ وصلَ إلى رَحْمَةِ الله تعالى[1]، ومِنْ لازِمِ ذلك: تعظيمُ المجاهدينَ ورفعُ شأنِهم؛ حيثُ سلَكُوا هذا السَّبيلَ الجليلَ.

فَائِدَةُ تَقْيِيدِ المُجَاهَدَةِ بِكَوْنِهَا ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

مِنْ أَسْبَابِ رِفْعَةِ الدَّرَجَةِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ

تَقْيِيدُ المُجَاهَدَةِ بكَوْنِها ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في قول الله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ يُرادُ به مدحُهُمْ بذلكَ، وفيهِ الإشعارُ بعلَّةِ استحقاقِهِمْ عُلُوَّ المنزلةِ، مَعَ ما فيهِ مِن حُسْنِ موضِعِ ﴿سَبِيلِ﴾ في مُقابلِ القُعودِ؛ فَإِنَّ السَّبيلَ مِن شأنِهِ أن يكونَ مَسْلُوكًا، ففيه حركَةٌ تُخالِفُ السُّكونَ المُستفادَ مِنَ القُعودِ[2].

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ عَمَّا قَبْلُ:

مِنْ طَرِيقَةِ القُرْآنِ الكَرِيمِ تَشْوِيقُ المُتَلَقِّي إِلَى الحُكْمِ

فُصِلَ قولُ الله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، وذلك لأنَّ نفيَ المساواةِ بين المجاهدِ والقاعدِ في قوله سبحانه: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ سَبَبٌ في ترقُّبِ كُلٍّ منهما الأفضليَّةَ؛ وذلكَ لأنَّ المجاهدَ جَادَ بالنَّفسِ والمالِ، والقاعدَ وإنْ فاتَتْهُ فضيلةُ الجهادِ؛ فإنَّهُ يكونُ قد خَلَفَ الغازيَ في أهلِه، وأَحْيَى الدِّينَ بالاشتغالِ بالعلمِ ونحوِ ذلكَ، فأورَثَ ذلكَ سؤالًا في نَفْسِ المُتلقِّي؛ ومَنْ أفضلُ الصِّنفَيْنِ؟ فجاء الجوابُ: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾[3]، ويحتَمِلُ أن تكونَ الجملةُ مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/370.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/220.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/370 - 371.

مَسوقًا لتَفصيلِ ما بين الصِّنفَين من التَّفاضُلِ المفهومِ مِنْ ذِكْرِ عدمِ استوائِهما على سبيل الإجمال، فلمَّا نَصَّ اللّه تعالى على عدمِ تساويهما؛ بعثَ ذلك في نَفْسِ المُتلقِّي سؤالًا: ما كيفيَّةُ التّفاضُلِ وكمِّيَّتُهُ، وكيفَ وقعَ ذلكَ؟ فجاء الجوابُ: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾[1].

دلالة ما بين لفظي الجهاد والقتال من عموم وخصوص:

القتال لا يكون إلّا بالسّيف، بينما الجهاد بالمال والقلم والبيان

الجهاد أعمّ من القتال، وأخصّ منه، فبينهما عموم وخصوص من وجه، كما يقول المناطقة، فهما يجتمعان في القتال الدّفاع عن الحقّ، والقتال قد يكون في البغي على الحقّ، ولا يكون الجهاد بمقتضى العرف الإسلاميّ إلّا ردّا للاعتداء. والجهاد لا يكون بالقتال وحده، بل يكون ببذل المال في تأييد الحقّ، وبالبيان في الدّعوة إليه، ولذلك يقول النّبي ﷺ: "جاهدوا المشركين بأنفسكم، وأموالكم، وألسنتكم"[2]، فالعموم مكرّس في مفهوم المواجهة الحربيّة بالسّلاح، وهذا هو المألوف في المغالبة بين المتحاربين، بينما الخصوص ظاهر في تعيّن الصّفة المحدّدة لكلّ منهما، ولفظ القتال كلفظ الحرب، موجود في كلّ الملل والنّحل، وفي كلّ اللّغات والبيئات، بينما لفظ الجهاد مصطلح إسلاميّ خاصّ بالحضارة الإسلاميّة وحدها دون سواها.

تَعْرِيفُ المُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالعَلَمِيَّةِ فِي لفظ (اللَّهُ):

مَا فَضَّلَهُ اللهُ تعالى مِنَ الأَغْمَالِ وَالأَشْخَاصِ، عَظِيمٌ بكلّ المقاييس

جاء المُسنَدُ إليه مُعرَّفًا بالعَلَميَّة؛ ولفظ الجلالة أشرف المعارف، وهو "مختصّ باللّه، وأصل اسم اللّه الّذي هو اللّه (إله) ثمّ دخلت عليه الألف واللّام فصار (الإله)، ثمّ تخفّف الهمزة التّخفيف الصّناعيّ، بأن تلين وتلقى حركتها على السّاكن قبلها، وهو لام

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/220.

(2) الحديث رواه أبو داود: رقم: (2504)، وأحمد في المسند رقم: (11837)، والنّسائي: رقم: (3096)، عن أنس بن مالك: (ﷺ)، ينظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1813.

التّعريف، فصار (اِلَاه) بكسر اللّام الأولى وفتح الثّانية، فأدغموا الأولى في الثّانية بعد إسكانها وفخّموها تعظيما"[1]، وهوفي إضافة الفضل إلى عظيم جلاله تعالى، آثر إيراد الاسم الأَحْسَنِ والأعظم (اللّه) في قَوْله ﷻ: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾؛ تَعظيمًا لشأنِ هذا التَّفضيلِ؛ إذْ هُوَ صادِرٌ مِن الّذي لَه صفاتُ الكَمالِ والجَلَالِ[2].

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ فِي تَقْدِيمِ الأَمْوَالِ عَلَى الأَنْفُسِ وَالعَكْسِ:

النَّفْسُ أَشْرَفُ مِنَ المَالِ، والجِهَادُ بِالمَالِ أَخَفُّ مِنَ الجِهادِ بِالنَّفْسِ

قَدَّمَ اللّه سبحانه المالَ على النَّفسِ هَهُنَا، فقال ﷻ: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، وقَدَّمَ النَّفْسَ على المال في قوله جلَّ وعلا: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التّوبة: 111]؛ وذلك لثلاثة أوجه[3]: أحدُها: أنَّ النَّفْسَ أشرفُ مِنَ المالِ، فَفِي الاشتراءِ قُدِّمَ ذكرُ النَّفْسِ؛ تنبيهًا على أنَّ الرَّغبةَ فيها أشدُّ، بخلافِ الجهادِ فأُخِّرَت النَّفْسُ فيها؛ تنبيهًا على أنَّ المُماكَسَةَ فيها أشدُّ، فلا يَرضى المجاهدُ ببَذْلِها إلَّا في آخر المَراتبِ.وثانيها: قُدِّمُ المالُ في ذكر الجهادِ؛ لأنَّ الجهاد بالمال أخفُّ على النُّفوس مِنَ الجهاد بالنَّفْسِ، فسُلِكَ في الآية مَسْلَك التَّرقِّي، بخلافِ آية التَّوبةِ فقُدِّمَت النَّفْسُ؛ لذِكْرِ الاسْمِ الأَحْسَنِ فيها (اللّه)، فناسَبَ ذكر أشرفِ الأمورِ وأعزِّها وهي النُّفوس.ثالثُها: أنَّ اللّه تعالى لَمَّا ذَكَرَ التَّفضيلَ؛ اقتضَى شيئًا يتميَّزُ به المُفَضَّلُ، فقَدَّمَ المالَ؛ لأنَّ المالَ ليس عند كلِّ أحدٍ، فيَحصُلُ بالجُودِ به: التَّمايُزُ، بخلاف ما في التَّوبةِ، فهو في شِراءِ اللّهِ تعالى مِنَ المؤمنينَ شيئين: النَّفْسَ والمالَ، ولَمَّا كان كلُّ مؤمنٍ عندَهُ نَفْسٌ؛ قَدَّمها على المالِ.

(1) الكفويّ، الكليّات، ص: 173.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/371.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/327، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/193، والآلوسّي، روح المعاني: 3/118.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ لفظ ﴿دَرَجَةً﴾، في قوله: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾:

التَّعْظِيمُ بِطَرِيقِ الإِبْهَامِ أَدْخَلُ فِي التَّفْخِيمِ مِنَ التَّصْرِيحِ

تنكيرُ ﴿دَرَجَةً﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ يُرادُ به التَّعظيمُ والتَّفخيمُ بطريقِ الإبهام[1]؛ لتَذْهَبَ النَّفْسُ في تَصوُّر عظمتِها وكمالِها كلَّ مَذْهَبٍ، ودَلالَةُ التَّعظيم مُستفادَةٌ بقرينَةِ نِسبةِ التَّفضيلِ لله سبحانه، ووَصْفِ المُفَضَّلِينَ بوصْفِ مدحٍ، "و﴿دَرَجَةً﴾ نصب بنزع الخافض، أي بدرجة، أو على المصدر، لأنّه تضمّن معنى التّفضيل، ووقع موقع المرّة منه، أو الحال بمعنى ذوي درجة"[2]، وفي الحالات الثّلاث، تكون الدّرجة ملمحا للمفاضلة المقرّرة من الله لهاته الفئة المضحيّة بالغالي والنّفيس، بمبادرتها إلى الجهاد، فتكون فاضلة على الفئة القاعدة، وذلك مطلق عدل الله في المفاضلة في كلّ شؤون الحياة والعطاء والجزاء.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قوله تعالى: ﴿دَرَجَةً﴾:

إِبْرَازُ المَعْنَوِيِّ فِي قَالَبِ الحِسِّيِّ أَوْضَحُ لِلنَّفْسِ وَأَعْلَقُ بِالقَلْبِ

الدَّرجَةُ في الأصل تُستعمَلُ في المُرْتَقَى الحسّيِّ، والدَّرجةُ في قوله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ مستعارَةٌ للعُلُوِّ المعنويِّ؛ وهو كثرةُ الفَضْلِ، ووَفْرةُ الأجرِ[3]، ونُكتةُ الاستعارةِ: تصويرُ المعنويِّ في صورة الحسِّيِّ؛ ليكونَ أعلقَ بالذِّهْنِ، وأوضحَ للنَّفْسِ.

إِيرَادُ المُسْنَدِ إليهِ عَلَمًا في قوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾:

جاء التَّعبيرُ بالمُسْنَدِ إليه عَلمًا بإيرادِ الاسمِ الأحسنِ (الله) في قولِه سبحانه: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ تَعظيمًا لأجرِ أهلِ الإيمانِ،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/221، والآلوسّي، روح المعاني: 3/119، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/172.
(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 2/91.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/171.

مَنْ جاهدَ مِنْهُمْ ومَنْ لم يُجاهِدْ؛ فهو ثوابٌ وجزاءٌ من اللهِ تعالى، المتَّصِفِ بصفات الجلالِ والكمال، والأجرُ يعظُمُ بعظمَةِ مُعْطِيهِ[1]، وذلك بأنْ "وعد الله كلّا ممّن جاهد وقعد عن الجهاد، عجزا منه، مع تمنّى القدرة عليه، المثوبة الحسنى، وهي الجنّة، فكلّ منهما كامل الإيمان مخلص لله في العمل"[2].

تَعْظِيمُ ثَوَابِ أَهْلِ الإِيمَانِ كُلِّهِمْ، تفضّل من الله ومنّة

فَائِدَةُ الِاعْتِرَاضِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾:

قولُ اللهِ سبحانه: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ إطنابٌ بالاحْتِرَاسِ[3]، وذلك لأنَّ تفضيلَ المجاهدين على القاعدين قد يُوهِمُ حرمانَ المفضولِ، فدُفِعَ ذلكَ بقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[4]، "إذا فضَّل تعالى شيئًا على شيء وكلّ منهما له فضل، احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين، لئلّا يتوهّم أحد ذمّ المفضّل عليه، كما قال هنا ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وكما قال تعالى في الآيات المذكورة في الصّف في قوله ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصّف: 13]، وكما في قوله تعالى ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد: 10]، أي ممّن لم يكن كذلك"[5].

تَفْضِيلُ المُجَاهِدِينَ لا يَقْتَضِي حِرْمَانَ غَيْرِهِمْ

نُكْتَةُ العُدُولِ عَنِ المَصْدَرِ المُوَافِقِ لِعَامِلِهِ (تَفْضِيلًا) إِلَى ﴿أَجْرًا﴾:

لفظ ﴿أَجْرًا﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لـ ﴿وَفَضَّلَ﴾، على أنَّه بمعنى أَجَرَ، وإنَّما أُوثِرَ على ما هو مصدرٌ من فِعْلِهِ؛ لِلْإِيذَان بأنَّ ذلك التَّفضيلَ أجرٌ لأعمالِهِمْ، ويَجوزُ أن يكونَ ﴿أَجْرًا﴾ مفعولًا ثانيًا لـ﴿وَفَضَّلَ﴾، بتضمينِ معنى الإعطاءِ فِيهِ، والمعنى: أَعْطَى اللهُ تعالى

مِنْ ثَمَرَاتِ تَفْضِيلِ المُجَاهِدِينَ نَيْلُهُمُ الأَجْرَ الجَزِيلَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/371.
(2) المراغي، تفسير المراغيّ: 5/129.
(3) جعله أبو السُّعود اعتراضًا، والّذي استقرَّ عليه الاصطلاح أنَّ مثل هذا يُسمَّى احتراسًا، وحقيقةُ الاحتراس: أن يُؤتى في كلامٍ يُوهِمُ خلافَ المراد بما يَدْفَعُ ذلك الإِيهَامَ، ينظر: الجناجيّ، البلاغة الصّافية، ص: 249.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 195.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/371.

المجاهدين زيادةً على القاعدِينَ أَجْرًا عظيمًا[1]، قال ابن عاشور: "عطف ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، على جملة ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾، وإن كان معنى الجملتين واحدا باعتبار ما في الجملة الثّانية من زيادة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾، فبذلك غايرت الجملة المعطوفة الجملة المعطوف عليها، مغايرة سوّغت العطف، مع ما في إعادة معظم ألفاظها من توكيد لها"[2]، وهو من فصاحة البيان القرآنيّ.

دَلَالَةُ تَنْكِيرِ ﴿أَجْرًا﴾، في قوله تعالى: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾:

عَـظَـمَـةُ الأَجْـرِ الّـذِي يَـنَـالُـهُ المُجَاهِدُونَ

نُكِّر ﴿أَجْرًا﴾ من قولِ الله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يُرادُ به النَّوعيَّةُ المُسْتَلْزِمَةُ للتَّعظيم، فـ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: نوعًا مِنَ الأَجْرِ لا يَعلم كُنْهَهُ إلّا الله تعالى، وهو ظاهرٌ في إفادتِهِ التَّعظيمَ، وَوَصْفُ الأجرِ بالعِظَمِ بمنزلةِ التَّوكيدِ المعنويِّ له، وكونه أجرا من العظيم، فلا يكون إلّا عظيما، وعطاء الله في الأجر وغيره، يكون على قدر كماله وغناه وكرمه الّذي لا حدود له، لا على قدر تقديرات البشر القاصرة.

سِرُّ جَمْعِ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ وتنكيرها، في قوله تعالى: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾:

عُـلُـوُّ شَـأْنِ المُـجَـاهِـدِيـنَ وَجَزِيلُ ثَوَابِهِمْ الّذي لا يقدّره إلّا الله

جُمِعَ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾؛ لإفادة التَّكثير والتَّعظيم والتَّفخيم، فأمَّا إفادتُهُ التَّكثيرَ فَظَاهِرٌ، وأمَّا إفادتُهُ التَّعظيمَ والتَّفخيمَ؛ فلِأنَّ الجمعَ لِمَا فيه من معنَى الكَثرةِ تُستعارُ صيغَتُهُ لمعنى القُوَّةِ والعظَمَةِ[3]، ويُقَوِّي دَلالةَ التَّعظيم والتَّفخيم قولُه سبحانه: ﴿مِّنْهُ﴾؛ أي: من الله تعالى، وهذا مُشعِرٌ بفخامَتِها وعُلُوِّ شأنِها[4]؛ فإنَّ الثَّوابَ من العظيمِ عظيمٌ، كما أنّ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 3/119.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/172.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/172.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 3/119.

تَنْكِيرَ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ في قوله سبحانه: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾؛ لبيان أنَّها درجاتٌ كثيرةٌ لَا يَحُدُّها الحَصْرُ، ولا يُعَيِّنُها المِقْدارُ[1]، فأفادَ مجموعُ الجمعِ والتَّنكير: كثرةَ الدَّرجاتِ، وعَظَمَتَها وفخامَتَها.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ المَغْفِرَةِ عَلَى الرَّحْمَةِ، في قوله: ﴿وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾:

التَّخْلِيَةُ قَبْلَ التَّخْلِيَةِ، مسلكٌ في التَّزكية والتَّرقية

قُدِّمَت المغفرةُ على الرَّحمةِ في قوله تعالى: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾؛ لنكاتٍ ثلاثٍ: إحداهما: أنَّ المغفرةَ سببٌ في الرَّحمةِ، كما قال اللّه تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النّمل: 46]، والأصلُ: تقديم السَّبَب، وثانيها: أنَّ ذلك يقتضي تقديمَ الرّحمةِ بِدَلالةِ اللُّزوم - لكونِها مسبَّبًا لِلْمغفرة - ، وتأخيرَهَا بِدَلَالَةِ المُطابقة، فيُفيدُ ذلك الدُّعاءَ بها مرَّتين، وثالثُها: أنَّ في المغفرةِ زوالَ المرهوبِ، وفي الرَّحمةِ تحصيلَ المطلوبِ؛ فكانَ تقديمُ المغفرةِ من باب أنَّ التَّحليةَ قبلَ التَّخلية.

نُكْتَةُ تَكْرَارِ التَّفْضِيلِ بلفظ ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾ في هذه الآية الكريمة:

إِكْرامُ اللهِ تعالى لِلْمُجَاهِدِينَ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ

تَكَرَّر ذِكْرُ تفضيلِ المجاهدين؛ فقد قال اللّه تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾، وقال سبحانَه: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وفي سِرِّ هذا التَّكرارِ أَوْجُهٌ[2]: أَوَّلُها: الإشعارُ باختلافِ مُتعلَّقِ التَّفضيلِ؛ فالتَّفضيلُ الأوَّلُ بالدَّرجةِ: هو ما يُؤتَوْهُ في الدّنيا من الغنائم، والتَّفضيلُ الآخرُ هو ما يُكرِمُهُم اللّهُ تعالى به في الآخرة، ولذا أُفرِدَ الأوَّلُ وجُمِعَ الثَّاني؛ لِلْإيماءِ إلى أنَّ ثوابَ الدُّنيا يسيرٌ في جَنْبِ ثوابِ الآخرةِ، ثانيها: أنَّ ذلكَ إعلامٌ باختلافِ المُفَضَّلِ عليهم؛ فالأوَّلُ: تَفضيلُ اللّهِ تعالى لِلْمُجاهِدِين على القاعدين مِن أُولي الضَّرر؛ وذلك حاصلٌ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1816.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/194، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/344، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/37، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/221.

بدرجةٍ واحدَةٍ، والثَّاني: تَفضيلُ اللّهِ سبحانه لِلْمُجاهِدين على القاعِدين مِن غير عُذرٍ؛ وذلك حاصلٌ بدرجاتٍ، وثالثُها: أنَّ فيه تنزيلَ الاختلافِ العنوانيِّ بين التَّفْضيلَيْنِ، وبين الدَّرجةِ والدَّرجاتِ: منزلةَ الاختلافِ الذَّاتِيّ؛ تمهيدًا لسلوك طريقِ الإبهامِ ثمَّ التَّفسيرِ؛ رَوْمًا لِمَزيدِ التَّحقيقِ والتَّقريرِ، ورابعُها: أنَّ التَّكرارَ بقَصْدِ تأكيدِ التَّفضيلِ والمبالغَةِ فيه؛ لبيانِ رِفعةِ المجاهدين وعَظيم شَأْنِهم.

بَلَاغَةُ الإِطْنَابِ بِالتَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

تَرْغِيبُ أَهْلِ الإِيمَانِ فِي تَحْصِيلِ الأَسْبَابِ المُقْتَضِيَةِ مَغْفِرَةَ اللهِ وَرَحْمَتَهُ

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ بعدَ قولِه سبحانه: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾: تَذْييلٌ جارٍ مَجْرى المَثَلِ؛ لاستقلالِه بالإفادَةِ من غيرِ افتقارٍ إلى ما قبلَهُ في بيانِ معناهُ، وفائدتُهُ: تَقريرُ وعدِ اللّهِ تعالى من المغفرة والرَّحمةِ وتأكيدُه[1]، وفيه حَثٌّ على التَّلبُّسِ بالعمَلِ المُقتضي لمَغفرةِ اللّه تعالى ورحمتِه، ولفظ ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾، بدل من ﴿أَجْرًا﴾ بدل الكلّ من الكلّ، مبيّن لكميّة التّفضيل[2]، وفيه إشارة إلى أنّه " ما فضّلهم بذلك إلّا بما اقتضته صفاته، وما هو شأنه في نفسه، فإذا لا بدّ من ذلك الأجر العظيم بأنواعه، ولا مردَّ له"[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَغْفِرَةُ وَالرَّحْمَةُ:

الفَرْقُ بينَهما من أوجهٍ: أوَّلُها: أنَّ أصلَ الغَفْرِ في اللُّغة: السَّتْرُ[4]، وأصلَ الرَّحْمَةِ: الرِّقَّةُ والعَطْفُ[5]، ثانيها: أنَّ أحدَهما سببٌ في الآخَرِ، ومالَ ابنُ عَرَفَةَ إلى أنَّ الرَّحمة سببٌ في المغفرة؛ لأنَّ الرِّقَّةَ والعطفَ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/222.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 3/285.
(3) رضا، تفسير المنار: 5/287.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).

تُوجِبُ عادةً سَتْرَ الزَّلَلِ[1]، إلَّا أنَّ ظاهرَ القرآنِ الكريم عكسُه؛ وهو كونُ المغفرة سببًا في الرَّحمة، كما قال اللّه تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النّمل: 46]، ثالثُها: أنَّ المغفرةَ والرَّحمةَ إذا جُمِعا في مَحَلٍّ واحدٍ؛ انصرفَتِ المغفرةُ لسَتْرِ ما مضى من الذُّنوبِ، والرَّحمةُ لِلْعِصْمة منها فيما يُستقبَلُ[2] إذا كان ذلك جزاءً في الدُّنيا؛ لأنَّ الآخرةَ لا يُتصوَّرُ فيها ذنوبٌ حتَّى يُحتاجَ إلى العِصمةِ منها، رابعُها: أنَّ المغفرةَ فيها زَوالُ المَكْرُوه مِن آثار الذُّنوبِ، والرَّحمةَ فيها تَحصيلُ المطلوبِ[3]، ولذلك كان استعمالهما معًا ذا دلالة وأهميّة.

المَغْفِرَةُ والعَفْوُ:

الفرقُ بينَهما من ثلاثةِ أَوْجُهٍ: أحدُها: أنَّ أصلَ الغَفْرِ في لُغة العربِ: السَّتْرُ[4]، وأصلَ العَفْوِ: المَحْوُ وَتَرْكُ الشَّيْءِ[5]، ثانيها: أنَّ الغالبَ استعمالُ العَفوِ في تَرْكِ الواجباتِ، واستعمالُ المغفرةِ في فِعْلِ المحرَّماتِ[6]، ثالثُها: أنَّ أحدَهُما أبلغُ مِنَ الآخَرِ، وقد وقع خِلافٌ في تعيينِ الأبلَغِ منهما على قولَيْنِ: أحدهما: أنَّ العفوَ أبلغُ مِنَ المغفرةِ؛ لأنَّ المغفرةَ تُنْبِئُ عَنِ السَّتْرِ، بخلافِ العَفْوِ فإنَّه مُشعِرٌ بالمَحْوِ، والمَحْوُ أبلغُ من السَّتْرِ[7]، والآخرُ: أنَّ المغفرةَ أبلغُ مِنَ العفوِ؛ لأنَّ المغفرةَ مُتضمِّنَةٌ وِقايةَ المغفورِ له شرَّ ذنبِه، وإقبالَ الغافِرِ عليه ورضاهُ عنه، بخلافِ العَفْوِ فإنَّهُ مُتضمِّنٌ لإسقاطِ صاحبِ الحقِّ حقَّهُ ومسامحتِه، فقد يَعْفُو ولا يُقْبِلُ على مَنْ عفا عَنْهُ ولا يرضَى عَنْهُ، وبهذا يكونُ العفوُ تركًا محضًا، والمغفرةُ إحسانًا وفَضلًا وجُودًا[8].

والأوَّلُ أشهَرُ، والاشتقاقُ اللُّغَوِيُّ يَدُلُّ عليه.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/435: 2/258.
(2) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول، ص: 19.
(3) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/66.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو)، وابن الأثير، النِّهاية: (عفا).
(6) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/341.
(7) الصَّفُّورِي، نزهة المجالس: 1/88.
(8) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 14/140.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع، سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 7 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-59-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 7 : سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-59-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5066600 بتاريخ 2023/03/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»